الفصل السادس

مؤرخو القرن الثالث

{ الطبرى }

القرن الثالث فى الإسلام من أغنى الحقب بالأدب العربى . فحيثما قلبنا النظر وجدنا كتبا قيمة تؤلف : كتبا ، صارت بعدُ موضوعـــــا للشرح ، أو التقليد ، أو الاختصـــار ، أو الـنظر إليها باعتبارها الاثر التقليدى الباقى ، وندين لمحمد بن جرير أبى جعفر الطبرى باثنين من أهم الكتب : تفسيره الكبير للقرآن ، الذى يضم جميـــع ما احتفظت به الاحاديث خاصا بمحتويات الكتاب المقدس ، وتاريخ الرسل والمـــلوك ، أو التاريخ العام ، الذى وصل به إلى عام ٢٩٨ هـــ . وترجمة ياقوت له مـــن أطول التراجم فى كتابه ، تشغل أربعين صفحة . وتبتدئ بإبانة العلوم الأربعة الـــتى اشتهر الطبرى فيها — الحديث ، والفقه ، وقراءة القرآن ، والتاريخ . ومات يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاث مئة ، ودفن يوم الاحد بالغداة فى دار برحـــبة يعقوب ببغداد. وعلى الرغم من أنه لم يستعمل الحناء ليخفى شيبه ، كـــان السواد فى شعر رأسه ولحيته كثيرا، إلى الخامسة والثمانين من عمره : إذ ولد فى ٢٢٥ هـــ . ولكن بعض العلماء يقول إنه دفن ليلا، خوفا من العامة ، لأنه كان يـــتهم بالتشيع — شأن كثير من المؤرخين المشهورين . وأنكر ذلك الخطيب، مؤلف تـــاريخ بغـــداد الكبير : وقال : اجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله، وصلى على قبره عدة شهور، ليلا ونهارا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب.

وسنقول فورا شيئا عن دراساته : ويذكر بين تلاميذه أحمد بن كامل، الذى تابع مسكويه دراسته التاريخية معه . وقد مكث أربعين سنة ، يكتب فى كل يوم منها أربعين ورقة . ويروى راوى ياقوت أن الطبرى قال لاصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما يفنى الاعمار قبل تمامه. فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ، أى العُشر. ثم قال : تنشطون للتاريخ العام من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحوا مما ذكره فى التفسير، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله ،ماتت الهمم . فاختصره فى نحو مما اختصر التفسير. ونستطيع ان نتصور الوقت الذى يستغرقه المرء فى نسخ كتاب من أمثال هذين الكتابين من الخبر الذى ادعى فيه صاحبه أنه كتب التفسير كله عن الطبرى إملاء : فاستغرق ذلك منه ثمانى سنوات ، من ٢٨٣ إلى ٢٩٠ هـ . ويخبرنا أنه فرغ من تصنيف كتاب التاريخ ، ومن عرضه عليه ، فى يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وثلاثمئة ، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة .

ويعدد الراوية التالى المذكور مجموعة متنوعة من الكتب الأخرى للطبرى، أحدها فى القراءات ، كتاب جليل فى ثمانى عشرة مجلدة إلا أنه كان بخطوط كبار، واختار قراءة ، وإن لم يقرأ عليه إلا آحاد من الناس ، ولم يعرف من قرائها غير ثلاثة .

يلى ذلك قصة تتضوع منها رائحة المعجزات . جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبرى ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر المروزى ، ومحمد بن هارون الرويانى ، بمصر . فأرملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يمونهم ، وأضر بهم الحال . فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون إليه ، واتفقوا على أن يستهموا ، فمن

خرجت عليه القرعة سأل الناس لأصحابه الطعام . فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة ، فقال لاصحابه : أمهلونى حتى أتوضأ وأصلى صلاة الخِيَرة . فاندفع بالصلاة فإذا هم بالشموع وخصى من قبل والى مصر يدق عليهم . فأجابوه وفتحوا له الباب فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هذا . وأشاروا إليه . فأخرج صرة فيها خمسون دينارا ودفعها إليه ، وقال : أيكم محمد بن جرير ؟ فأشاروا إليه . فدفع إليه خمسين دينارا ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل : هذا . فدفع إليه مثلها ، ثم قال : وأيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة ؟ فقيل : هو ذا يصلى . فلما فرغ من صلاته دفع إليه صرة فيها خمسون دينارا . ثم قال : إن الامير كان قائلا ، فرأى فى النوم خيالا أو طيفا يقول له : إن المحامد طووا كشحهم . فبعث بهذه الصرر، وهو يقسم عليكم إذا نفذت أن تبعثوا إليه ليزيدكم .

يلى ذلك بعض أخبار رواها ابن كامل ، الذى كان تلميذ الطبرى كما رأينا. جاء إلى المؤرخ ، ومعه ابنه الصغير ، فى التاسعة من عمره ، فوجد تحت مصلاه كتاب فردوس الحكمة لعلى بن ربن الطبرى، وهو فى الطب : فمد الزائر يده لينظره ، ففضل الطبرى ألا يفعل، ودفعه إلى الجارية. وقال : لَمَ لم تُسمعه منى شيئا ؟ قال : كرهنا صغره وقلة أدبه . فقال له : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه . فقال له المعبِّر : إنه إن كبر نصح فى دينه، وذبّ عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير .

وأول ما بدأ دراساته فى آمل من طبرستان حيث وُلد ، ثم بالرى . وكان من أساتذته محمد بن حميد الرازى . « فيخرج إلينا فى الليل مرات ، ويسألنا عما

كتبـــناه، ويقـــرؤه علينا » – ليتأكد من صحته . « وكنا نمضى إلى أحمد بن حماد الـــدولابى ، وكان فى قرية من قرى الرى بينها وبين الرى قطعة ، ثم نعدو كالبجانين حـــتى نصـــير إلى ابـــن حميد فنلحق مجلسه » : فكتب عن ابن حميد فوق مئة ألف حديـــث ، ومـــنها ما كان فى كتاب محمد بن إسحاق، وعليه بنى تاريخه . ثم دخل الطـــبرى بغداد ، وكان فى نفسه أن يسمع من أحمد بن حنبل، فلم يتفق ذلك لموته قـــبيل دخوله إليهـــا . ولـــكن الطبرى أقام بالعاصمة بعض الوقت ، وكتب عن شيوخها، ثم انحدر إلى البصرة، مقيما فى واسط بعض الوقت راميا إلى حضور مجالس علمها .

ثم صـــار إلى الكوفة ، فكتب فيها عن أبى كريب محمد بن العلاء الهمذانى ، أحـــد الشيوخ . وعندما رغب الطلبة فى حضور مجلسه ، اطلع أبو كريب من كوة فى حـــائط منزله ، وقال : أيكم يحفظ ما كتب عنى ؟ فالتفت بعضهم إلى بعض ، ثم نظـــروا إلى الطبرى ، وقالوا : أنت تحفظ ما كتبت عنه ؟ قال : نعم . واستطاع أن يجـــتاز امتحان الشيخ الصارم ، وسمع منه أكثر من مئة ألف حديث أخرى . ثم عاد إلى بغـــداد ، وتفقـــه بها ، وأخذ فى علوم القرآن: ثم غرَّب ، وكتب فى طريقه من المشـــايخ بأجناد الشام ، ثم صار إلى الفسطاط فى سنة ثلاث وخمسين ومئتين. وكان أكـــرم العلماء بالفسطاط على بن سراج ، الذى وجد الطبرى فاضلا بارعا لا فى العـــلوم الدينية وحدها ، بل فى الشعر أيضا . واستطاع أن ينشد ديوان الطرماح ، وكـــان من يقوم به مفقودا فى البلد، وأن يمليه بغريبه . وبرز فى الفسطاط مؤسسا لمذهـــب مـــن مذاهب الفقهـــاء ، وكان ابتدأ على مذهب الشافعى: ولقى بعض الأتـــباع ، شـــأن غـــيره مـــن الفقهـــاء ، إذ لم تعتبر المذاهب الأربعة المذاهب الصحيحة وينفى غيرها إلا فى أواخر القرن الرابع .

ويـــدون ابن كامل قصة سمعها من الطبرى ، متعلقة بتجاربه عند وصوله إلى الفسطاط، وتبين اختلاف اللهجات بين الاقطار التى تتكلم العربية . فقد حصل له بعـــض من اتخذهم من أصدقاء على دار ، وذكروا له مجموعة من الاشياء التى هو محتاج إليها : فكانت جميع الالفاظ التى استعملوها غير مألوفة منه بمعانيها المصرية . أخـــبر أنـــه محـــتاج إلى حمارين : فقال : وأما الحماران فان أبى وهب لى بضاعة أنا استعين بها فى طلب العلم : فان صرفتها فى ثمن حمارين ، فبأى شىء أطلب العلم ؟ ولكـــن الحمـــاران كانا أربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط ، لينام عليها من الـــبراغيث ، وكذلـــك كانت الاشياء الاخرى تعادل الحمارين رخصا وعدم قدرة على الاستغناء عنها .

وتـــبين قصـــة أخـــرى تـــروى عن مسلكه فى الفسطاط بعض الافتقار إلى الصـــراحة. فقد كان محاطا برجال من جميع الأنواع ، يمتحنونه فى الفروع المختلفة من المعرفة التى اشتهر بها . فجاءه يوما رجل فسأله عن شىء من العروض. ولم يكن الطـــبرى نشط له قبل ذلك ، ولكنه كره أن يعلن جهله به . فطلب إلى السائل أن يمهلـــه يوما، وفى الوقت نفسه اقترض مقالة الخليل بن أحمد ، مبتكر هذا العلم . وعندما كرر السائل زيارته ، كان الطبرى قد صار « عروضيا » .

ويـــبين خبر مروى عرضا فى حياة رجل آخر أن الطبرى لم يكن دائما كفؤا للشهرة التى حظى بها من حيث أنه يحفظ ذخائر كثيرة من العلم . ذلك الرجل هو القاضـــى أبو جعفر التنوخى المعروف بابن بهلول ، والمتوفى عام ٣١٨ هـــ ، وكان أحد القضاة الذين رجع إليهم بشأن زندقة الحلاج . فقد قابل الطبرى فى جنازة فى بغـــداد ، دون أن يعرفه : فاشتبـــكا فى حوار وكشـــفا كلاهما عن معرفة كبيرة بـــالأدب. وعندما عرف القاضى اسم محدثه ، الذى كان مشهورا — لا بالكتابة ،

فيما يبدو ، بل بقوة الحفظ والاتساع فى صنوف العلم – أسف أن لم تأخذ المذاكرة مجـــرى آخر : وبعد مدة تقابلا فى مناسبة أخرى ، فانتهز القاضى الفرصة لاختبار الطـــبرى . فكلما ذكر قصيدة ، وطلب إلى المؤرخ أن ينشدها كاملة : حذف منها أبياتا كثيرة وتلعثم كثيرا : ولكن ابن بهلول استطاع فى كل مرة أن يملأ الثغرات ، فبان للحاضرين تقصير الطبرى، وسر ابن بهلول للنتيجة .

وعاد من الفسطاط إلى بغداد ، ومنها إلى موطنه طبرستان ، التى زارها ثانية عـــام ٢٩٠ هـــ . وعند عودته إلى بغداد بعد أولى هاتين الزيارتين اشتبك فى نزاع مع الحنابلة ، بسبب كلمة بدرت منه فى حق إمامهم اعتبروها إهـــــانة له . فرُمى بالمحابـــر ، وحُصبت داره بالحجارة ، حتى صار على بابه كالتل العظيم ، ثم رفعها الجند ، الذين كان على رأسهم نازوك ، الذى نعرفه من مسكويه . وعمل كتابا فى الاعـــتذار إليهـــم ، مدح فيه أحمد بن حنبل ، ولم يخرج كتابه الذى ناقش فيه آراء ذلـــك الـــرجل حـــتى مات . وليس من الواضح ، كما رأينا ، أنه نجح فى مهادنة الحنابلة ، الذين كانوا عنصر فزع فى بغداد .

وكانت براعته فى النحو كافية لتكسب له إطراء ثعلب ، الذى كان الطبرى قـــد حضر مجالسه قبل أن يشتهر ، وعرف عن ثعلب أنه كان قليل الشهادة لاحد بالحذق فى علمه .

ويروى من مميزات الطبرى أنه كان يكره تفضيل أحد تلاميذه على سائرهم: فـــلو لم يســـتطع طـــالب الحضور ذات يوم ، أجّل الطبرى مجلسه إلى أن يستطيع الحضور .

ويبدو أن الطبرى اشترى الكتب أيضا ، بالاضافة إلى رحلاته فى كثير من الاقطار لتحصيل العلم رواية . يروى وراق أن الطبرى التمس منه ، إذ عزم على تأليف رسالة فى القياس ، أن يجمع له ما أمكنه من الكتب فيه . فجمع له الوراق نيفا وثلاثين كتابا . فأقامت عنده مديدة ، ثم ردها وفيها علامات بحمرة .

ويخص ياقوت بعض الصفحات لآراء الطبرى الدينية ، وكان شديدا متمسكا بالسنن ، وإن لم يكن من اليسير التوفيق بين بعضها وآراء السنة المتأخرين من بعض الوجوه . وكفّر الخوارج والروافض ، أى من لا يستطاع قبول أدلتهم . وتمسك بأن لا وراثة بين أفراد المذاهب المختلفة فى الدين الواحد ، سواء أكانوا مسلمين ، أم يهودا ، أم مسيحيين . وعند وفاته غفر لكل من عاداه ، إلا رجلا رماه ببدعة — وكان يعتبرها إهانة لا تغتفر . وتشدد فى تمسكه بصحة الحديث الذى تبنى عليه الشيعة حق على فى الخلافة ، ولكنه كان شديد الاعجاب أيضا بالخلفاء الثلاثة الأولين . وقد اضطر إلى مغادرة طبرستان بعد زيارته الاخيرة ، لأن الرفض ظهر بها ، وخاف أن يجرى عليه ما يكرهه بسبب آرائه . وقد وجه سلطان البلدة إليه من يأتى به ، ولكن صديقا أخبره فى الوقت المناسب فهرب : ولكن الصديق حصل فى أيديهم وجُلد .

ويقال إنه كان ذا كبرياء تمنعه من أخذ هدية لا يمكنه المكافأة عليها . ووجه إليه أبو الهيجاء بن حمدان ، الذى اضطلع بدور من أدوار البطولة عندما خلع المقتدر وأقيم القاهر مقامه ، ثلاثة آلاف دينار : فردها بدعوى أنه لا يقدر على المكافأة عنها . وفى مناسبة أخرى عندما وجه إليه الوزير هدية من المال ، وسأله إن لم يقبلها أن يفرقها فى أصحابه ممن يستحق، امتنع الطبرى من قبول الدراهم قائلا :

هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك . ومن جهة أخرى بعث هو نفسه هدايا إلى الوزير عندما قدم الحاج ، وجلبوا معهم مال ضيعته فى طبرستان .

وكـــانت الكـــتب الـــتى يفضلها المؤرخ ويجتهد بأصحابه أن يأخذوها ، لا التفســـير ولا التاريخ ، وإنما كتبه الفقهية : « الاختلاف » ، وهو أول ما صنف ، وكـــان فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ؛ و « تهذيب الآثار » ، فى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاخبار ؛ ومقالة فقهية تسمى « البسيط » . وعند وفاته كـــان مشتغلا بمقالة كبيرة فى الادب، شبيهة فى خطتها بإحياء العلوم الذى أخرجه الغزالى من بعد .

ويصـــف ابـــن كـــامل ، الذى كان تلميذ الطبرى ، كما قد رأينا، مظهره الشخصى وعاداته ، وكان شديد العناية بنظافته : ويخبرنا أيضا كيف قسم الطبرى يومـــه : فكان يكتب من الظهر إلى العصر،كان يجلس للناس يقرئ ويُقرأ عليه إلى المغـــرب. ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى عشاء الآخرة . ثم يدخـــل منزله . كذلـــك يوجد جانب أخف من شخصيته ، وتروى بعض الأخبار التى تمثل فصاحته وفكاهته .

وقـــد اشـــتبك فى خصومة قوية مع رجل ، هو داود بن على الاصفهانى ، مؤسس المذهب الظاهرى : خصومة اتسمت مرارا بالخشونة . وجدير بالملاحظة أن مذهب هذا الرجل قُدِّر له أن ينال من الانتشار ما لم تنله آراء الطبرى البتة .

ولعـــل حكـــم الاجيال التى تلت على آثاره كان مفضلا لتفسيره وتاريخه ، ويـــبدو أنهما كليهما صورة أمينة للمادة التى جمعها فى رحلاته. وواضح أن ملكاته

الادبية حرمته بعض خصائص المؤرخين : ولذلك كان حين اضطر إلى تناول شئون عصره ، معيبا ، ولم يعط صورة واضحة عن تطور الاحداث ، وحذف تفاصيل مهمة ، ولذلك ظهر القديرون من وزراء عهده وخلفائه فى صورة الظلال المعتمة . ونفعُه أكثر جدا عندما يكون أمامه مادة هيأها له السابقون . وإنا لنشك فيما إذا كان قادرا حقا على تأليف تاريخ يبلغ عشرة أضعاف تاريخه الموجود ، فالمحتمل إذن أن من الواجب علينا رفض تلك القصة واعتبارها خرافة لا أساس لها .

وإذ كان الغربيون يهتمون أشد الاهتمام بالتوسع الإسلامى عن طريق الفتوح ، فإن تلك النقطة ليست بارزة عند الطبرى للأسف . والمؤرخ الذى يتخذ من الحروب الاجنبية موضوعا له ، مضطر إلى معرفة بعض الامور عن الجانب الآخر : حالة الأمة ، وأسماء قوادها وسياسييها وأعمالهم وما شابه ذلك . ويجب ألا يكون القيام بمثل هذا البحث خارجا عن نطاق الطبرى ، الذى ربما كان عاونه كثيرا على فهم التقدم الإسلامى فى فرنسا وتوقفه بانتصار شارل مارتل . ويظهر فى أواخر القرن الرابع مؤلف عانى كثيرا فى مثل هذا البحث ، وهو أبو الريحان البيرونى ، ولكنه مؤلف وحيد . ولا شك أن الشيوخ الذين أخذ الطبرى عنهم ، والكتب التى حصل عليها ، كانت أكثر عناية بالامور الداخلية منها بالشئون الاجنبية .

كان عمل عظماء المحدثين المعاصرين للطبرى يقوم على اختيار الصحيح من الاحاديث الكثيرة الشائعة حينئذ . وقد اختلفت « شروطهم » ، ولكنهم أجمعوا على تصديق عدد متوسط منها ، والرجوع إليه فى التشريع . ولعلنا نذهب إلى أن الطبرى قام فى التاريخ بعمل مشابه لما قام به البخارى ومسلم فى الحديث : اختيار المادة التاريخية الصحيحة من مجموعة المادة التى تقدمها كتب المدائنى وغيره : وأتبع ذلك عملا شاقا وخطرا إلى حد ما ، هو الاستمرار بالتدوين إلى عصره .

وعلى الرغم من ضخامة تاريخ الطبرى نجد أنه نقله بعد موته الرواة ، كأنما هو رواية شفوية . فقد نقله إلى مسكويه ابن كامل : وروى من يسمى أحمد بن عبد الله الفرغانى ٣٢٧ - ٣٩٨ هـ ، وكان أبوه صديقا للطبرى ، التاريخ والتفسير ، عن أبيه . وألف الأخير تاريخا خاصا به ، أكمله هذا الابن .

{ أبو حنيفة الدينورى }

واشتهر معاصر للطبرى فى التاريخ وعلوم أخرى أيضا . وهو أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى . ويوجد بعض الشك فى تاريخ وفاته ، إذ تختلف الروايات بين عامى ٢٨٢ و ٢٩٠ هـ . وأشهر كتاب له فى النبات : ولكنه اشتهر بالبلاغة أيضا ، وتروى مناقشة وقعت فى مجلس أبى سعيد السيرافى النحوى بصدد تفضيل بلاغة أبى حنيفة والجاحظ البصرى العظيم . وحاول أبو سعيد أن يختم النقاش ، بأن جعل أبا حنيفة أدخل فى أساليب العرب ، والجاحظ ذا معان لاصقة بالنفس. وأعلن أبو حيان التوحيدى ، راوى هذه المناقشة ، أنه يضع ثلاثة من الكتاب فوق جميع من كتب : هم الجاحظ البصرى، وأبو زيد البلخى ، وأبو حنيفة الدينورى . ويقول عن الأخير: « جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم ؛ وهذا كلامه فى الأنواء ، يدل على حظ وافر من علم النجوم ، وأسرار الفلك . فأما كتابه فى النبات فكلامه فيه ، فى عروض كلام أبدَى بدوى ، وعلى طباع أفصح عربى . ولقد قيل لى : إن له فى القرآن كتابا، يبلغ ثلاثة عشر مجلدا » . وقد أثار انتباه الموفق ، أخى المعتمد ، فرعاه . وكان لغويا كبيرا أيضا : ويروى خبر عن ورود المبرد الدينور ، حيث سأله مضيفه عيسى بن ماهان عن معنى كلمة غريبة فى الحديث . وإذ كان المبرد غير متأهب للسؤال ، ارتجل معنى للكلمة،

وعـــندما سئل عن شاهد عليها ، انتحل بيتا من الرجز ، ثم أعلن حضور أبى حنيفة وقُـــدم له الســـؤال . فأكد أن شاهد المبرد منتحل، وأن للكلمة معنى يختلف كل الاختلاف عما قال المبرد . واضطر المبرد إلى الاعتراف بإصابة أبى حنيفة ، واعتذر بأنه أنف أن يرد من العراق، وذكره ما قد شاع ، ولا يعرف أول ما يسأل عنه .

وثـــبت كتبه الذى يرويه ياقوت عن الفهرست متنوع أشد التنوع : إذ تمثل فيه الجغرافية ، والنبات ، والرياضة ، واللغة ، والتاريخ الادبى ، كما يتمثل التاريخ الفعلى . وقد نشر مجلد يدعَى أنه كتابه فى الاخبار الطوال ، ويضم تخطيطا للتاريخ العـــام إلى عهـــد المعتصم . ويختلف عن الطبرى فى حذفه « الاسانيد » : فيطرد السرد ، مع إقحامه كثيرا من الاشعار .

وأينما ذكر المؤلف رواة ، كانوا الكلبى والهيثم بن عدى . ويسرد التاريخ ، كما قد رأينا ، بأسلوب الروائى ، فيورد الاحاديث الخاصة مطولة ويجعل الاحزاب تتـــبادل الاشعار : بل تنظم الرسائل شعرا ، فى الحقبة الحرجة عندما كان نصر بن ســـيار يحاول تحذير مروان الثانى من الخطر الذى يهدده من خراسان . ولا يبين عن كـــبير مقدرة على النقد: يروى (كما قد رأينا) أن من يسمى الكرمانى بعث إلى عمـــر بن إبراهيم ، من أبناء أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير ، يسأله نسخة من المعاهدة التى تمت فى الجاهلية بين اليمن وربيعة . فأجاب سؤاله ، وأرسل إليه نسخة مـــن المعاهدة يوردها المؤلف برمتها . وهى مدونة بالعربية الفصحى ، مسجوعة ، وتســـتهل بعبارة دالة على التوحيد . ولدينا فى نقوش مأرب نص من أبرهة هذا ، وهو مدون باللغة السبئية : ولكن الدينورى لم يخامره أى شك .

وأيـــنمـــا اختـــلف هذا المؤلف مع الطبرى ، فالمحتمل وجوب تفضيل رواية الطـــبرى عادة . ويجدر بنا ملاحظة أنه عندما روى قيام العباسيين لم يشر إلى تنازل محمـــد بـــن الحنفية المفترَض ، الذى رأينا لاسباب أخرى أنه غير صحيح . وبرغم ذلـــك لا يمكـــن أن تقوم مقارنة حقة بين كتابه وكتاب الطبرى : فمن الواضح أن الـــتاريخ العـــام الـــذى لا يشغل غير ٤٠٠ صفحة يقوم على مقياس يختلف كل الاخـــتلاف عـــن مقياس الكتاب الضخم للرجل الآخر . ويبدو أن القول بأن هذا الكـــتاب ليس كتاب الاخبار الطوال الوارد فى ثبت الدينورى له وجاهته : إذ لا يتفق العنوان مع المحتويات .

{ أحمد بن أبى طاهر طيفور }

وعاصـــر الطبرى أيضا أحمد بن أبى طاهر ، المتوفى عام ٢٨٠ هـــ ، والذى رأى الضـــوء مجـــلد واحـــد يعالج عصر المأمون من كتابه الكبير فى تاريخ بغداد : خـــلفائها وأمرائها ، وأيامهم . وقد أتهم بالسرقة فى هذا المؤلف ، ولكن من المتعذر إثبات ذلك .

ويســـمى أبو هذا الرجل طيفور ، وكان من مرورذ . ويقال إنه كان يروى عـــن عمر بن شبة ، الراوية المشهور . وكان فى مستهل حياته مؤدب كُـــتَّاب . ويؤكـــد المؤلـــف الـــذى ينقل عنه ياقوت أنه لم ير ممن شهر بمثل ما شهر به من التصـــنيف للكـــتب وقـــول الشعر أكثر تصحيفا منه ، ولا أبلد علما ، ولا ألحن: واشتهر أيضا بسرقة أجزاء من شعر غيره . ويروى خبر لطيف عن حيلة احتال بها هـــو وصديق للحصول على مساعدة فى وقت اشتدت بهما الازمة فيه . إذ تظاهر

ابن أبي طاهر بالموت ومضى صديقه إلى رجل عظيم يطلب مساعدته فى دفنه . فأتى العظيم ليرى الجثة ثم نقر أنفها : فضرط ابن أبي طاهر ، وفسر صديقه الامر بأن هذه بقية من روحه كرهت نكهته فخرجت من استه . ويبدو أنه عاش على المدائح: ويدون خبر وهب فيه ١٠٠ دينار لمدحه الوزير الحسن بن مخلد ، الذى يروى عنه التنوخى بعض الاخبار الغريبة . فأرجأ صاحب خزانة الوزير ، وكان اسمه رجاء ، المكافأة ، مدعيا أنه لم يؤمر بشيء . فكتب ابن أبي طاهر بعض أبيات يحث الوزير فيها أن يبادر بالجود ما دام مقتدرا ، فليس فى كل حال هو مقتدر : فضاعف له المكافأة . وثبت كتبه التالى عظيم الطول ، وأغلبه تراجم شعراء ومختارات من دواوينهم : ويوجد أيضا بعض المقالات السياسية، ويبدو أن بعضها كان على هيئة الروايات التاريخية ، ذلك اللون الذى ابتدأه اكسينوفون Xenophon فى Cyrupaedia . ويصل أحد الاخبار بينه وبين المبرد ، الذى هجاه ، وهاجمه فى عنف .

ولا تلقى بقية الاخبار فى ترجمة ياقوت لهذا الرجل أية أضواء على ألوان نشاطه الادبى . وتتألف من قطع من أهاجيه للوزراء وغيرهم من مشهورى عصره ، وكل ما نستطيع استنتاجه أنه تسلم مرتبا ما من خزانة الحكومة . وقد شكا إلى أحد الوزراء عندما تأخر هذا المرتب، وذُكر أن مثل هذه الشكوى تكشف افتقاره إلى الكرامة الشخصية ؛ ووعده إسماعيل بن بلبل ، الذى سمعنا عنه ، المساعدة ، ولكنه لم يمنحه إياها فعلا . ولم يأذن له وزير آخر بالدخول، وواضح أن مرتبه لم يكن من أجل الابحاث التاريخية ، وإنما من أجل شعره ، الذى لم يبق منه غير قطع ذكرها من ترجم له .

{ البلاذرى }

ونـــال مـــؤرخ آخر فى هذا القرن شهرة مستفيضة بحق ، وهو أحمد بن يحيى البلاذرى ، المتوفى عام ٢٧٩ هـــ . وكان رجل بلاط ، يقتبس من المعلومـــــات ما يمنحه الخليفة المتوكل ، وعينه المعتز مربيا لابنه عبد الله .

وقـــد أكثر من الرحلة وأبعد بحث وراء المعرفة ، وزار عدة مدن من الشام . ومن شيوخه فى بغداد أربعة مشهورون ، هم ابن أبى شيبة ، والقاسم بن ســـــلام أبو عبيد ، مؤلف غريب الحديث ، والمدائنى ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدى .

ويقال إنه منسوب إلى البلاذر ، وهو ثمر شربه جده ، فسبب له الوسوسة . واحـــترف إلى جـــانب أبحاثـــه فى الـــتاريخ فن الهجاء ، وصبه دون شفقة : على الاشـــراف. ويروى ياقوت خبرا ذا أهمية نقلا عن البلاذرى نفسه . لما أمر المتوكل إبراهـــيم بن العباس الصولى ، أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج ، حتى يقـــع فى الخـــامس من حزيران ، ويقع استفتاح الخراج فيه ، كتب فى ذلك كتابه المعروف ، وأحسن فيه غاية الاحسان .فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل فعرفه حضور إبراهيم بن العباس ، وإحضاره الكتاب معه . فأمر بالاذن له فدخل . وأمره بقـــراءة الكـــتاب فقـــرأه ، واستحسنه عبيد الله بن يحيى ، وكل من حضر . قال الـــبلاذرى : فدخلنى حسد له ، فقلت : فيه خطأ فقال المتوكل : فى هذا الكتاب الـــذى قرأه على بن إبراهيم خطأ ؟ قلت : نعم . قال : يا عبيد الله ، وقفت على ذلك ؟ قال : لا ، والله يا أمير المؤمنين ، ما وقفت فيه على خطأ . فأقبل إبراهيم بن العـــباس عـــلى الكتاب يتدبره ، فلم ير فيه شيئا فقال : يا أمير المؤمنين ، الخطأ لا

يعرى منه الناس . وتدبرت الكتاب خوفا من أن أكون قد أغفلت شيئا وقف عليه أحمد بن يحيى . فلم أر ما أنكره ، فليعرفنا موضع الخطأ . فقال المتوكل: قل لنا ما هـــو هذا الخطأ الذى وقفت عليه فى هذا الكتاب ؟ فقلت : هو شيء لا يعرفه إلا عـــلى بن يحيى المنجم ، ومحمد بن موسى ، وذلك أنه أرخ الشهر الرومى بالليالى ، وأيام الروم قبل لياليها ، فهى لا تؤرخ بالليالى ، وإنما يؤرخ بالليالى الأشهر العربية، لأن لياليهـــا قبل أيامها بسبب الاهلة . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، هذا ما لا علم لى به ، ولا أدعى فيه ما يدعى . قال : فغيّر تاريخه .

وبـــين أيدينا كتابان له فى التاريخ . أما « فتوح البلدان » فسجل للفتوح الإسلامية ، ويورد كل فصل منه عادة بعض تفاصيل تاريخ البلد المفتوح بعد فتحه. ويخـــبرنا أن التفاصيل مجموعة غالبا من علماء كل أقليم : فقد زار الاماكن وتعرف عـــلى الافكـــار الشائعة فيها ، المتعلقة باسم الفاتح ، وطريقة الفتح ، وما تلاه من أحـــداث مهمة . وتضم هذه التفاصيل غالبا توزع الاقاليم على القبائل ، وانتقال الســـكان مـــن مكان إلى آخر، وإنشاء الآثار العامة أو المرافق وإتمامها ، ومصدر الاسماء الخاصة والامور الاخرى التى كان تخليدها مهما . واستخدم ، بالإضافة إلى حصـــوله على هذه المعلومـــــات المحلية ، التى كانت جديرة بالثقة إلى مدى بعيد ولا شـــك ، استخدم آثار البحاثة السابقين ، كالواقدى عن طريق محمد بن سعد ، كاتـــبه ومؤلـــف الطبقات. وواضح أن بعض الشك يحوم أحيانا حول مسائل لها أهميـــتها ، وأن قـــدرا لا بأس به من الخطأ وقع فى التواريخ ، نتيجة الاعتماد على الـــرواية الشـــفهية . وبرغم ذلك يجب الاعتراف بأن قدر هذه المآخذ أقل مما كنا نـــتوقع . وأيـــنما روى البلاذرى روايات مختلفة عن الحوادث الواحدة ، كما هى الحال غالبا ، لم يكن الاختلاف كبيرا عادة . وينطبق ذلك على المواضع التى يورد

فيها روايات مختلفة من المعاهدة الواحدة . فالمعانى واحدة على وجه التقريب ، وإن اختلفت العبارة ، وترتيب الجمل وبعض التفاصيل أحيانا نتيجة لتزوات ذاكرة الرواة .

وذهب آلورد Ahlwardt ، إلى أن مخطوطا فى برلين ، هو المجلد الحادى عشر ، من كتاب آخر لهذا المؤلف ، وكان ٤٠ مجلدا فى الاصل ، ويقال إنه توجد مجلدات أخرى منه فى القسطنطينية . وليس هذا الكتاب ، وهو « أنساب الاشراف » ، تاريخا مطردا ، وانما مجموعة من الروايات التى تعالج أحداثا خاصة : ويجب أن نستبدل كلمة « فتوح » فى الكتاب الآخر بكلمة « أمور » ، إذ أنها واردة فى عناوين المخطوطات . وأغلب مادة المجلد الحادى عشر الحروب بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك ، والحروب بين خوارج ذلك العصر وخصوم الخلفاء. وقد دون المبرد فى كامله ، وهو كتاب لغوى أكثر منه تاريخى ، قدرا طيبا من المادة نفسها. ويجمع البلاذرى فى هذا المقال الروايات التى شكلها عوانة ، والهيثم ، والكلبى ، وغيرهم : ويذكر الاشعار المتصلة بالمناسبات كثيرا جدا ، ويعترف أو يلاحظ أحيانا أن نسبة الاشعار إلى أصحابها خاطئة ، أو أنها تشير إلى مناسبة أخرى . وقد اعتنى بتأريخ الحوادث ، ولكنه لا يوجد ترتيب مطرد نتيجة لطبيعة منهجه : إذ يرغمه تقسيم التاريخ إلى أحداث منفصلة إلى الرجوع والتقدم فى الزمن . وأهمية الكتاب تقوم على إبانته المرحلة الوسطى بين الرواية المنفصلة عند المدائنى والتاريخ المطرد الذى نجد مثالا له عند الطبرى . ويجمع البلاذرى الاحداث الواقعة فى حقبة واحدة معا ، ولكنه لا يزال يعالجها كأنها وحدات . أما فى كتاب الطبرى فقد اتصلت بالمجرى الرئيسى . وتفقد فى حقبة متأخرة ما هيتها تماما .

{ ابن قتيبة }

ووصل إلينا كثير من كتب مؤلف من هذه الحقبة ، هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى استمرت حياته من ٢١٣ - ٢٧٠ هـ . وكان قاضى الدينور ، ويعرف عادة بابن قتيبة . وأشهر كتبه « أدب الكاتب » ، الذى شرحه كثيرون ، وهو رسالة ليرجع إليها كتاب الدواوين . وهى إحدى ثلاث رسائل تقليدية فى الفن المسمى بالأدب ، أما الآخران فبيان الجاحظ وكامل المبرد . ومادتها البراعة النحوية واللغوية : وقد صار الكاتب بعد بضعة قرون فى حاجة إلى معلومات متسعة متنوعة وضمت الرسالة المؤلفة ليرجع إليها عدة مجلدات .

ويسمى أحد كتب ابن قتيبة التاريخية « المعارف » ، وهو موجز من المعلومات التاريخية التى تتألف فى غالبها من القوائم ، والحقائق المتصلة بالنبى ، وجداول الانساب، وأسماء الفرق وما إلى ذلك . وفائدة الكتاب لا ينازع فيها ، ولكن قلما يستطاع تسميته تاريخا . ويختلف كتاب آخر يعزى إليه عن الكتاب السابق كل الاختلاف فى ظواهره . ذلك هو كتاب « الامامة والسياسة » ، وهو تاريخ للدولة الإسلامية منذ وفاة النبى إلى وفاة هارون الرشيد . وبالرغم من ذلك فتزييفه التاريخ أو جهله به من الوضوح بحيث لا يمكن أن يكون لابن قتيبة . فهو يجعل من السفاح والخليفة العباسى الأول أبا العباس شخصين مختلفين : ويفترض أن هارون الرشيد الخلف المباشر للمهدى ، الذى يقول إن ابنه عبد الله دس له السم . ولا يعرف له ابن بهذا الاسم . ويبدو أن المؤلف يكشف عن عناية خاصة بشئون اسبانيا، التى لا يعرف عنها اكثر مما يعرف الكتاب الشرقيون عادة ، وأنه من أتباع الإمام مالك الذى يصوره منتصرا على أتباع أبى حنيفة فى إحدى المناقشات. فلعله

أذن قصـــاص أندلســـى . ولما كانت وفاة هارون الرشيد لا تعلم حقبة فى التاريخ الإســـلامى ، فان انتهاء كتابه بها ربما أفاد دليلا على تاريخه . ويبدو أنه لا يشير إلى أى حادث ، بعدها : والطريقة التى يعالج بها أيام هارون وقصة بنى برمك لا تختلف عـــن طـــريقة الطبرى : وواضح أن هالة الروائية أحاطت بهذه العائلة بعد نكبتها بوقـــت قصـــير تماما : بل وقع ذلك فى منتصف القرن الثالث. فلعلنا إذن لا نبعد كثيرا عن الصواب حين نعد هذا الكتاب من نتاج القرن الثالث .

وهذا الكتاب من أعظم التواريخ العربية جاذبية فى سهولة الاسلوب وجماله: بل إن مؤلفه أكثر من أبى حنيفة اصطباغا بالصبغة الروائية ، ويدعى إيراد الرسائل المتـــبادلة بين المشهورين الذين يروى أخبارهم ، وإيراد خطبهم ومحادثاتهم . وقلما يحـــيى رواياته بالاستشهاد بالشعر. ولعله كان يرى أن نهجه فى جعل القصة جذابة أكـــثر احتمالا للنجاح . وهو متعصب لعلى شأن كثير من المؤرخين ، قليل العطف عـــلى معاويـــة وخـــلفائه أو الاعجاب بهم : والحق إن علينا أن نرجع إلى فتوح الـــبلاذرى لـــنقدر خدماتهم للإسلام : إذ يمر الطبرى وغيره على جهود الخلفاء فى التنظـــيم والإدارة دون كبير عناية . ومن اليسير أن نعتذر لكتاب الامامة عن هذا الامـــر ، إذ أوضح أن موضوعه ليس التوسع الإسلامى ولا التنظيم الداخلى وإنما الطريقة التى حصل بها على الإمامة أو طولب بها : وإذ كانت الاحداث التالية لمقتل عثمان ذات الاهمية المطلقة فى تقرير هذا الامر ، فالمؤلف على حق حين يعالجها فى إطـــناب ينفى جميع الالوان الاخرى من التأريخ . والاستثناء الرئيسى الذى عقده هذا المؤلف هو استثناء غزو المغرب واسبانيا ، اللتين فتحتا فى أيام أبناء عبد الملك ، وكان بطل الغزو موسى بن نصير ، الذى لقيت خدماته كفرانا ونكرانا عظيمين من الخـــليفة سليمان . وتتمثل فى الكتاب بعض المواد الخرافية التى تقابلنا فى التواريخ

المستأخرة لهذه الفتوح ، وإن بدا أنه يلتزم الحقائق فى هذه الاحداث . وقلما يذكر الرواة الذين استقى منهم أقواله : وجدير بالملاحظة أنه يقتبس من الهيثم بن عدى قائلا « وذكروا أن الهيثم بن عدى أخبرهم » ، مما يوحى بأن المؤلف عرف آثار هذا الجمّاعة عن طريق الرواية الشفوية لا النسخ . وحين يورد رسائل تكون عبارته « ذكروا » أن الرسالة التالية بعثها شخص إلى آخر ، و « ذكروا » أن الأخير ارسل الجواب التالى . ونجد ، كما قد رأينا ، كتابا آخرين يوردون الرسائل المدونة فى بعض المناسبات ، ولا تتفق هذه الرسائل إلا على المدى الذى توجبه الظروف التى يقال إنها دونت فيها . وتحيى مثل هذه الوثائق ، والخطب ، والمحادثات ، كما هى واردة عندهم ، التاريخ وتجعله حيا ولكنها بطبيعة الحال ليست مصدرا للمعرفة . وهناك بعض الحقائق المستفيضة الشهرة وذات الاهمية الكبرى التى لا تزعزع : الاضطربات التى واجهت عليا حين بويع خليفة ، وأدت إلى ظهور قوة الامويين : انتقال مركز الحكومة من المدينة إلى العراق وإلى دمشق : ربما قلنا إن كل إنسان عرف أن النبى هاجر إلى المدينة واتخذها عاصمة لامبراطورية يرغب فى معرفة كيف نقلت عاصمة الإسلام إلى موضع آخر ، وكيف استطاعت الاسرة التى ناصبت محمدا أشد العداء أن تتوارث خلافته . ويستطيع راوى هذه الاحداث، إذا شاء ، أن يحييها بجعل الفرق تتحدث وتتراسل إذا ما كانت متباعدة: ولكن المحادثات والرسائل كانت مستنبطة من الحقائق ، لا العكس . ولما كان المؤرخون المختلفون يعزون الوثيقة الواحدة إلى رجال مختلفين ، كما قد رأينا، فمن المحتمل أن الاشخاص الثانويين ، الذين يظهرون فى تلك الاخبار سعاة ، أو أصدقاء يستشارون ، أو موظفين فى مراكز ثانوية ، إنما ذكروا فى أغلب الاحيان تخمينا، وإن وجدت أحيانا لدى الاسر القديمة أخبار مأثورة بأن أحد الاجداد اشترك فى أحد هذه الاحداث المهمة .

وقد عصر المؤلف خياله فى إيراد المجادلات الطويلة التى يشترك فيها كثيرون، كمـــا حدث عندما اقترح معاوية إعلان يزيد خليفة بعده وطلب البيعة له . فهناك مجموعة كاملة من الخطب ، معظمها فى جانبه ، وبعضها يعارض الاقتراح : ثم ذهب معاويـــة إلى المدينـــة ليعـــلن اقتراحه فيها وتكررت محادثاته مع الزعماء ، إذ يزور عائشـــة، التى كان خطابها له من الفصاحة بحيث خاف أن يجيبها كيلا يكشف عن ضعف موقفه .

وإن كان الكتاب الذى أمامنا كله من قلم واحد ، لم يكن من المستطاع تبرئة المؤلـــف مـــن تهمة الاهمال .فهو يذكر فى ختام المجلد الأول وصفا مطولا لواقعة الحـــرة، رفـــض أهل المدينة مبايعة يزيد بعد موت معاوية ، وإرسال مسلم بن عقبة لاخضـــاعها ، مع مختارات من الفظائع التى ارتكبت فى الايام الثلاثة التى استبيحت المديـــنة فيها . ولكننا حين ننتقل إلى المجلد الثانى نجد المؤلف فيها يبدو قد نسى كل هـــذه القصة المخيفة الطويلة ، ويورد تخطيطا آخر للأحداث نفسها دون أية إشارة عـــلى أنـــه روى هـــذه الأخبار كلها قبل . ولا يدهشنا مثل هذا العمل كثيرا فى الحالات التى ينقل فيها مؤلف فقرات من مؤلف سابق ، دون أن يعير محتوياتها كبير عناية : ولكنها مذهلة فيما هو مقصود به أن يكون أثرا فنيا قصدا واضحا .

وعلى الرغم من توقعنا أن مؤرخا يكتب فى ظل العباسيين كابن قتيبة الحقيقى يتعصـــب على الامويين ولا يكثر من الاشادة بهم ، فإن هذا المؤلف لا يمكن اتهامه بـــالهوى المفرط من هذا الجانب ، بل هو شديد الاعجاب بأميرين أمويين ، عمر بن عبد العزيز ، الذى يستثنيه حتى مؤلفو الشيعة مما يرمى به الامويون عامة ، إذ كان زاهـــدا ومعجبا بعلى ، ويروى المؤلف عنه بعض المعجزات الساذجة . ولكنه أشد حماســـة فى مدحـــه هشام بن عبد الملك ، الذى يعتبر أيامه أوج الخلافة : فقد جبى

الخـــراج من جميع أنحاء العالم ، وأوجد حقبة من الامن والرخاء لم يعرف مثلها من قبل ، بمدونه وصرامته فى الحق ، واستعداده الاصغاء إلى المطالب، والتنظيم الدقيق الذى جعله عارفا بكل ما يدور فى جميع أرجاء الخلافة. وكان هذان الإمامان وفقا لقـــول المؤلـــف شديدى الاختلاف فى الشخصية على الرغم من نجاحهما حكاما : فكـــان عمـــر مـــن الحرص على استعمال الاموال العامة بحيث جعل أفراد عائلته يلبسون المرقعات: وكان هشام من الاسراف بحيث لم يترك فى خزانته بعد موته ما يغطـــى نفقات جنازته . وسواء كانت الصور التى يرسمها المؤلف صادقة أو كاذبة ، فـــإن أوصافه للخلفاء المستقلين تترك تأثيرا واضحا وحيا ، لا يمكن الحصول على مثله من رواية الطبرى الجافة .

{ اليعقوبى }

أمـــا الكاتب المعروف باليعقوبى ، أحمد بن إسحاق بن جعفر، فمؤرخ على نطـــاق ضيق ، ولكن أعظم جدا. وليس لدى ياقوت غير أسطر قلائل عنه ، ذكر فيها ملاحظة وردت فى كتاب تاريخى لمحمد بن يوسف الكندى، نصت على أنه توفى عـــام ٢٨٤ هـــ . وهو من أسرة كتاب ، وقد أكثر من الرحلة وأبعد، وألف كتابا فى الجغرافية ضمه دى غويه De Goye إلى مكتبة الجغرافيه . ويتبع كتابه التاريخى خطة لابد أنها احتاجت إلى قسط طيب من البحث لتحقيقها . فيورد تفاصيل فلكية فى مـــبدأ كـــل عهد ، ليستطيع الخبراء أن يروا كيف تبع مجرى الاحداث أحوال الكواكـــب فى بـــزوغها . ويسجل فى ختام كل عهد أسماء الرجال الذين كان لهم أعظـــم الـــنفوذ مع الخلفاء ، وأمراء الحج فى كل سنة، وقواد الحملات ، والقضاة المشهورين . وقلما يذكر مؤرخين قدماء فى حقبة الخلافة؛ وكلما اقترب من عصره ذكـــر من حين لآخر أشخاصا استقى منهم المعلومات. ومعلوماته عن العهد الذى

عاش فيه غاية فى الاخلال، وقاصرة على الهيكل المجرد ؛ ولكنه أكثر علما بالعهدين الامـــوى والعباســـى الاول . ويورد قدرا كبيرا من الرسائل والخطب ، التى دون بعضـــها غـــيره من المؤرخين ؛ ويصف الخطب أحيانا بالشهرة . والمرجح أن هذا الصـــنف تاريخى . وهو عظيم الاعجاب بعلى وعميق الاهتمام بالأئمة من أبنائه ؛ ويفـــرد صفحات كثيرة للحكم والمواعظ المنسوبة إليهم . ولما كان يصف مذهب المعـــتزلة بالـــتوحيد ، فقد نستنتج أن هواه كان مع تلك الفرقة . إذ إن ذلك هو اللقب الذى أطلقوه على أنفسهم . ويبدوأنه لم يشاركهم الشك المرتبط بمذهبهم ، حيـــث يســـجل وقوع كثير من المعجزات . وواضح أن عنايته بالاخلاق كبيرة . فيورد نصائح الخليفة المنصور لابنه عند موته برمتها ، وهى نصائح بالتقوى والورع والخير ، وإن بدا هذا الخليفة من تاريخه من أعظم الخلفاء الذين تولوا الحكم إغفالا للحق .

ومـــن المستطاع الرجوع إلى معلوماته بين حين لآخر لتكملة أقوال الطبرى ، ولكنها من القلة بحيث لا تقدم خدمة كبيرة من هذا الجانب . ومن المستطاع اعتبار تاريخـــه موجزا جادا فى التاريخ الوطنى مدونا للطلبة ، الذين ليس لديهم الوقت أو الرغـــبة لمتابعة الدراسة فى عمق شديد . ويشبه ترتيبه المادة طبقا للعهود – بخلاف تـــرتيب الطـــبرى عـــلى السنين – الترتيب المتبع فى الكتب الحديثة ذات الطبيعة المشابهة . ويجعل النطاق المحدد الذى منحه لنفسه وصفه للحوادث غامضا ، إذ قلما يتســـع المجـــال أمامه لتفسير عالمها ، ولم يكن لديه البراعة العظيمة فى اختيار تلك الاعمال الكبيرة للدلالة على الشخصية فى رواياته .

وعـــلى الرغم من أن الطبرى أدى لنا خدمة نبيلة بجمع الروايات التى ألفها أسلافه وترتيبها على السنين ، ومحاولة الوصول بالتاريخ إلى عصره ، لا يسد كتابه

تماما الحاجة إلى الوثائق الرسمية والمعاصرة فى الحقبة السابقة . ونمثل لذلك بقصة قيام العباسيين . يروى لنا الطبرى كيف انتقلت المطالبة بالخلافة من الحسين بعد وفاته إلى محمد بن الحنيفة، الذى نقلها إلى مجموعة الراغبين فيها ، الذين نجح السفاح أخيرا من بينهم . ولكنه يدعى أيضا إيراد رسالة الدعاية التى دافع المنصور فيها عن حقه : وليس فى هذه الرسالة شيء عن ابن الحنفية : وإنما يطالب المنصور بالخلافة على أساس أنه من يمثل عم النبى المؤمن ، وتلك هى المناقشة التى لم يملّ ما دحو العباسيين إيرادها البتة . ومع ذلك فمؤكد أن المنصور كان فى مناقشاته مع أبناء على يصير مالكا لسلاح قوى بانتقال الدعوى من على إلى ابن الحنفية ومن هذا إلى أحد العباسيين . ويبدو إذن أن المحتمل أن هذه النظرية عن انتقال الدعوى إنما ظهرت بعد مجادلات المنصور ببعض الوقت ، ردا على العلويين، الذين كانوا دائمى المطالبة بالخلافة . ولم يتنبه الطبرى إلى التناقض فى هذه الحالة وبعض الحالات الاخرى ، على حين كان المتوقع أن يلاحظه بحكم مرانه فى القضاء.